شفوية اللغة: إشكالية المفهوم في الدّرس التّداولي الحديث

د. ذهبية حمو الحاج ،

قسم اللغة العربية وآدابها،

جامعة تيزي وزو

الملخص:

إنّ اللغة الشّفوية، التي استند إليها العرب للحفاظ على تراثهم اللغوي والأدبي على السواء لغة قوامها الذّاكرة القويّة وحسن السمع وحبّ اللغة العربية، مثلما استندت إليها أقوام أخرى لأهداف شتّى، أمّا اليوم ومع تطوّر الدراسات اللغوية والتداولية منها بالخصوص جعلت اللغة في شفويتها منطلقا للوصول إلى ما وراء اللغة، وإلى كيفية اشتغال الذّهن، للكشف عن عمليات الإنتاج والتأويل، فإذا كان التراث الشّفوي متمثّلا في التّراث غير المادي، الذي تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل، فذلك يعني تكريس مفهوم التّداول، والتداول يحيلنا إلى اللغة المنطوقة قبل الكتابية بما يتبلور في مبدأ الحوار وانتقال الكلام بين أطراف العملية الخطابية وبين الأجيال، والاعتماد على الذّاكرة باعتبارها وسيلة أساسا لبقائه وإبقائه. وإثارتنا للتداولية باعتبارها علما جديدا لاستعمال اللغة، هي إثارة لكيفية توظيف اللغة في مقامات معيّنة قصد الحفاظ على التراث، الذي ليس إلا اللغة المتداولة المعبّرة على مقاصد وأغراض شتّى تحيط بالذّات الإنسانية وبعالمها، اعتقادا أنّ هذا العلم خادم لا محالة لمثل هذه الظواهر المرتبطة بالإنسان من تراث وذاكرة وتداول وممارسات.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الشفوية، التراث، الذّاكرة، التداولية، تداولية التراث.

Résumé :

L'oralité de la langue a été l'une des grandes problématiques de tous les siècles, et la relations entre l'oral et l'écrit en sciences du langage et en pragmatique ont nourri et nourrissent aujourd'hui de nombreux débats. Toutefois, cette présentation dichotomique qui donne la priorité au canal et au code a été relativisée, et de nombreuses productions orales font elles état d'une référence à l'écrit plus ou moins marquée. L'oral nous conduit vers la pragmatique qui donne des outils importants permettant de détecter les circonstances de l'écriture et les dimensions que la langue offre aux utilisateurs afin de comprendre leur histoire et leur quotidien.

Mots clés : Oralité, Patrimoine, Mémoire, Pragmatique, Histoire de l'oralité.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

إنّ الثّقافة جسر يسمح للأجيال بالانتقال عبر العصور حاملة معها إرثها الاجتماعي والسياسي والشّخصي، ونظرا لممارستها وتداولاتها اللغوية المستمرة، فهي تضيف وتزيل في ثقافتها ما لا يتلاءم مع تطوّرها الحضاري، وهذا يعني أنّ الإرث يمكن أن يتغيّر ويعدّل وفق متطلبات العصر، دون أن يمسّ الجواهر الثّابتة الجماعية أو الشخصية مثل الذّاكرة والهوية والتّقاليد والانتماء، فكلّ شخص معني بما يرثه من تراث معنوي ومسؤول عن نقله بروحه الموروثة إلى الأجيال اللاحقة.

آثرت في هذا البحث التّطرّق إلى شفوية اللغة وإشكاليتها من حيث مفهومها في الدّرس التّداولي الحديث حتّى أضفي شيئا جديدا على التّراث الشفوي وتأريخه الذي ألفنا أن يتمّ بطرائق معروفة عند الباحثين المختصين في هذا الميدان دون إثارة لعنصر هام في نقل اللغة وتدوينها وتسجيلها وهو العنصر التّداولي الذي يتضمن العناية بالذّوات الإنسانية وما يدور حولها من ملابسات سياقية تحيط باللغة من جميع جوانبها، إذ لا تعدو اللغة أن تكون ناقلة لحروف وأصوات، وإنّما هي أكثر من ذلك بكثير، هي وسيلة للتأثير والتأثر، ووسيلة للتّفاعل بين الأفراد والجماعات وحتّى بين الأجيال، وهو ما تقرّه فلسفة اللغة العادية التي نادى بها فلاسفة اللغة في العصر الحديث أمثال هوسرل، وأوستين، وسورل، وجرايس بالخصوص.

سوف أنطلق من مفهوم التّداولية(1) أوّلا والذي لا يخرج رغم التعريفات المتعدّدة عن مفهوم استعمال اللغة في سياق معيّن(2) مشيرة إلى أنّه رغم الإجراءات والآليات التي جاءت بها هذه النّظرية، فإنّها لم تنف الطابع الصارم في اللغة، إضافة إلى أن الشّفوية ترتبط أكثر الارتباط بالاستعمال، إذن السؤال المطروح: هل ضبط اللغة كتابيا يعني الإلمام بأبعادها جميعها، وهل التأريخ اللغوي يُوصل إلى الإحاطة بجميع العناصر الخطابية؟ أم التأريخ يعني دائما نسخ اللغة ونقلها مجرّدة من معالمها الإنسانية والذّاتية؟

لقد استند الدّرس التّداولي الحديث على فلسفة اللغة العادية(3) ممّا جعلها تقترب من لغة الرّجل العادي، اللغة التي يتحدّثها يوميا، محدّدا كيفية انتقالها وحدودها، والأغراض المحتملة من ورائها. الإشكال الذي أطرحه في هذه الورقة هو كيفية تمكّن النّظرية التّداولية من الحفاظ على اللغة، علما أنّها تركّز بالخصوص على اللغة العادية، ومدى إسهامها في نقل التّراث الشفوي إلى الأجيال اللاحقة، وهل التّركيز على اللغة العادية المتداولة هو السبيل الأنجع للمحافظة على التّراث الشفوي؟ علما أنّ اللغة العربية منذ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

قرون خلت لم تخرج عن هاته الطّريقة لإبقاء اللغة العربية وحمايتها، بدءا ممّا قام به النّحاة من أجل الحفاظ على التّراث اللغوي والدّيني على السّواء باعتبارهما ناقلين لثقافة وحضارة متميّزة.

شفوية اللغة العربية:

ينبغي أثناء طرح التّساؤلات حول التّاريخ الشّفوي، طرح التّساؤلات حول الصراع الفكري والحضاري والثّقافي الذي جعل اللغات تبحث عن مكانتها المجتمعية، وكثيرا ما حاول المستعمر طمس الهوية مستهدفا اللغة على دراية منه أنّها النّاقل الأمثل لمقوّمات أيّة أمّة من الأمم، فنحن في العصر الحديث وفي المغرب العربي الذي هو جزء من الوطن العربي ما نزال نعاني من هذا المشكل العويص الذي يفتّت عروق الشّعب الجزائري متسائلا عن انتمائه وأصوله(4)، وهل ينتمي إلى ثقافة غربية أم إلى ثقافة شرقية؟ لقد أتت اللغة العربية في المغرب العربي بمقوّمات جديدة وبطعم آخر للحياة، وانتشرت بفضل الدين الإسلامي وجاذبيته، وتبناها النّاس بحبّ وطواعية، وتعايشت مع اللغة الأمازيغية(5) التي سبقتها بسنين دون أن تقوم بتدميرها، وشعارهم في ذلك كان متمثّلا في: باللغة نمارس وجودنا الثّقافي والعلمي، وبلغاتنا القومية نمارس وجودنا الفنّي والفكري والتّخصصي، فبحكم أصلها الأول في شمال إفريقيا تبوّأت اللغة الأمازيغية أو المازيغية مكانة في الجانب الشّفوي، إلاّ أنّها بقيت دون كتابة نظرالتهميشها في المواقع الرّسمية والتّخصصية، فقد كتبت بحروفها ثمّ بالحروف العربية إلاّ أنّ ذلك كان محدودا جدا.

- **شفوية اللغة والذّاكرة:**

تعدّ الذّاكرة من الموضوعات التي حظيت باهتمام كبير من لدن باحثين من مختلف المشارب والتّخصصات، رغم وجودها بشكل متميّز في حقول الأدب والفلسفة والتّاريخ والفنون. الذّاكرة في بدايتها الأولى كانت من الألفاظ المتداولة في كتب علم النّفس، مثلما كان لها نصيب من التّحديد في المعاجم، فقد ورد أكثر من مرّة أنّ الحفظ للشيء تذكُرُهُ، والذّكر والذّكرى بالكسر نقيض النسيان، والذّكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذّكر بالقلب والتذّكر تذكّر ما أنسيته، وذكرت الشيء بعد النسيان، وذكرتُه بلساني وبقلبي وتذّكرته...وإن احتمل مصطلح الذّاكرة مفهوم الحفظ، إلاّ أنّه لا يمتّ بصلة إلى مفهومه في العصر الحديث، إذ يرتبط بالذّكاء الصناعي وقدرة الوسائل الإلكترونية على تخزين المعلومات لفترة زمنية محدّدة، والشيء اللافت للانتباه هو أنّ هذه الوسائل تسمح بالجمع فقط، ولا يمكنها أن تستحضر الماضي بروحه الاستعمالية وتجعل المطابقة والمشابهة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

بين الأحداث في أوّجها خالقة للتفاعل والاستفادة من جميع جوانبها الاجتماعية والإنسانية.

إنّ الذّاكرة الشفاهية مرتبطة في العصر الحديث بالموروث الشّعبي لأمّة من الأمم، وإذا رجعنا إلى الوِرث والإرث والميراث، فهي تعني انتقال شيء من شخص إلى شخص أو من قوم إلى قوم، وهو أعم ما يكون بالمال أو بالعلم أو بالمجد والشّرف، ومنه قوله صلى الله عليه وسلّم: "العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا، وإنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"، والتّاريخ اللغوي وشفويته في الوطن العربي يمكن أن نقسّمه إلى قسمين: قسم متعلّق باللغة في جانبها الأدبي وقسم متعلّق باللغة في جانبها الثّقافي. إذا رجعنا إلى الجانب الأول، نقول إنّ الشفوية والاستعمال اللغوي هو الذي يضمن للغة بقاءها، وهذا ما جعلنا نستند إلى التّداولية الحديثة المرتبطة بتوظيف اللغة وممارستها من قبل الذّات الإنسانية، ولا يتمكن الإنسان من جمعها إلاّ مشافهة أي تداولا، وفي هذا الصدد نقول إنّ اللغة العربية حظيت باهتمام من أحبّها وغار عنها إلى درجة تحمّل المصاعب والمشاق من أجل جمعها وترتيبها ووصفها، وهي عودة إلى البدايات الأولى لتدوين اللغة العربية، التي تمّت عن طريق المشافهة (مشافهة الأعراب، ومشافهة النّاس ممّن هم من بيئة نقيّة فصيحة)، والقسم الثّاني المتعلّق باللغة من جانبها الثّقافي يضبطها في ممارسات أخرى كالغناء والأمثال والألغاز والدّين وهو ما يعرف في العصر الحديث بالموروث الشعبي الذي تعدّ اللغة ناقلة له ومؤطّرة لمعالمه.

ننطلق من فكرة أنّ التّراث الشّفوي ما هو إلاّ الموروث الشّعبي، الذي تتناقله الشّفاه وتحفظه الذّاكرة، مثلما يتحدّد في تلك الأساطير والمعتقدات وأشكال التّعبير اللفظي والمعارف والمهارات، التي تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل اعتمادا على الذّاكرة. إذا كانت الذّاكرة هي نقيض النّسيان، فهذا يعني التّمكن من إبقاء كلّ ما يتعلّق بيوميات الأشخاص وتجاربهم محفوظة واستحضارها في الوقت المطلوب، ومن هنا يبدو أنّ الذّاكرة لا تقتصر على الحفظ فقط وإنّما هي أيضا الممارسة، وبالتّالي لا تبتعد عن الاستعمال الذي نادت به التّداولية في العصر الحديث، وتأكيد التّداولية على الذّات والذّاتية في استعمال اللغة(6) يتناسب مع الذّاكرة التي تحتفظ بذاتية الإنسان وبعلاقته باللغة الموظّفة في يومياته، ما يسمح للتّراث الشّفوي بالاستمرار والانتقال عبر الأجيال.

وهنا إشارة لما يتعلّق بالتّواصل والشّفاهية من حيث انتقال التراث الشّفوي لغويا، وهو عبارة عن أقوال وُرثت عن الآباء والأجداد والجيل الحاضر معني بحفظه وإعادة إحيائه من جديد، عن طريق دراسته أو عن طريق تدوينه. إنّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

الذّاكرة الشّفاهية تبوّأت مكانة جدّ هامّة من حيث أهميتها في حفظ التّاريخ، والشّعوب التي لم يتسن لها تدوين تاريخها كتابة(7) تقوم بحفظ تاريخها وثقافتها على شكل أشعار وأمثال وحكم، فقد عوّضت هذه الشّعوب المكتوب بالمنطوق وذلك عن طريق تمثيل الصّور في الذّهن واستحضارها عند الاستعمال.

ومن التّساؤلات التي تتبادر إلى ذهن الباحث في اللغة وعلومها تلك الصلة الوثيقة بين البحث اللغوي وحياة صاحبه اليومية في أي عصر من العصور، وتجعل منها فصلا تأريخيا يقوم بتصوير جانب من جوانب حياة النّاس والأشياء المحيطة بهم وأغراضهم وأنشطتهم اليومية، ومشاكل حياتهم وطقوسهم حتّى تكاد بعض المؤلفات مثل البيان والتبيين أو الخصائص، أو...أن تكون بحثا صالحا في المجال الأنثربولوجي، إذ تؤكّد على الصلة الوثيقة بين هذه الكتب والحياة الاجتماعية والثّقافية والسياسية لأصحابها، وكثرة التوارد على هذه الكتب والانكباب عليها يوحي بتقرّب روحي وإنساني إليها ممّا يُحدث تحيين الصورة، إذ يرتبط كلّ مكتوب بمنطوقه الخاص وظرفه المعيشي وحقبته الزمنية وملابساته التاريخية والحضارية والثّقافية.

وما نشاهده في العصر الحديث أين أُعيد الاعتبار للممارسة والتّداول في شتّى المجالات، عودة إلى الذّاكرة من حيث البحث عن الحقّ في الوجود وفي الهوية، يقول عبد الهادي بوطالب: "الهوية مجموعة من الخصائص والمميّزات التي ينفرد بها فرد أو شعب أو أمّة، والتي تتوارث عن ماض ذي تاريخ وتراث، وبما في التّراث من لغة ودين، وما للأمّة من انتصارات وانتكاسات وطموحات وانتماءات وخصائص، تجعل من ينتمي إليها ذا ذاتية متميّزة عن غيره، فيصبح ويبقى هو ذاته ونفسه، ويكون بهذا قد أعطى الجواب عن سؤال من هو؟"(8) وبحث في العرق والديانات بما فيها من خصوصيات تضمن الأمان للتّاريخ من التّحريف.

إنّ صلة الإنسان بغيره تتحدّد من خلال استعماله اللغوي ممّا يفضي إلى التّداولية التي عرّفها جريماس وكورتاس A.J.Greimas, J. Courtes بقولهما: "هو العلم الذي يدرس المعنى مع التّركيز على العلاقة بين العلامات ومستعمليها والسياق، أكثر من اهتمامها بالمرجع وبالحقيقة وبالتركيب"(9)، ومثل هذا التّحديد يسهم في تشكيل الذّاكرة التي تعرف بالذّاكرة الجماعية التي صاغتها الممارسات اللغوية بشتّى أشكالها وأطّرتها الرّموز باختلافها، من رموز للأفراح، للأحزان، للعاطفة الإنسانية، للتّداوي، للأمل... فإذا كانت الذّاكرة الفردية مرتبطة بالهوية الشخصية، فإنّ الذّاكرة الجماعية مرتبطة بالهوية الثّقافية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

إن تراث الأمم باختلافها يحمل في أحضانه الشيء الكثير، فهو حاضن وناقل لجواهر ثمينة لا تمتّ دائما بصلة إلى النّص في ذاته، وإنّما يرتبط أشدّ الارتباط بجوانب أكثر تعقيدا، إذ ما التّراث الشّفوي إلاّ تأريخ لحالات نفسية واجتماعية وثقافية ورمزية تلج بالذّات الإنسانية إلى أعلى الدّرجات وأقصاها في الشّمولية والتّعقيد. ومثل هذه الجوانب لم تكن من اهتمامات المؤرخين، الذين راحوا منجذبين إلى النّصوص بما فيها من ماديات دون إيلاء العناية لمنتجيها ومتلقيها. إنّ العناية بأطراف العملية الخطابية في التّراث الشفوي يجعل المضامين حاملة لمعان محدّدة خاضعة لسياقاتها، ورغم ذلك جنح المؤرّخون وعلماء التّراث إلى الرّموز والممارسات المتعدّدة التي ترتبط بالظواهر المتداولة في عصر من العصور، ففي قاموس لاروس Larousse مثلا نجد التّراث الشّفوي محدّدا بـ"مجموعة التّقاليد من أساطير ومعارف ومذاهب وآراء وعادات وممارسات"، بينما يضبطه قاموس روبيرRobert بانتقال جميع الممارسات عن طريق الكلمة المنطوقة.

التّراث الشّفوي والتّاريخ:

لقد استحوذ الأنتربولوجيون على المصادر التّاريخية عندما تخلى المؤرخون عنها، ممّا أبعدها عن البعد التّاريخي، إلى جانب عدم الاعتراف بالتّاريخ خصوصا، وطال الأمر حتّى الحقائق التّاريخية، التي فُصلت عن التّراث الشفوي، ما أحدث شرخا معرفيا ومنهجيا تجاهلا أنّ التّاريخ المدوّن لم ينشأ إلا في أحضان التّراث الشّفوي، فينبغي تحديد الأولويات: لا يمكن الحديث عن التأريخ بمعنى التّدوين قبل الحديث عن التأريخ بمعنى التّداول في جميع الممارسات، وبذلك تكون مكوّنات التّاريخ الشّفوي متمثّلة في: القصص، الأمثال والحكم والأساطير والسّير الشعبية والغناء والشّعر. ويبقى رأي الباحثين في هذه المسألة متأرجحا، إذ هناك من يعتقد في أسبقية المنطوق على المكتوب، وهناك من يذهب إلى ضرورة تفحّص التّراث الشّفوي من منظور التّاريخ المدوّن أو الآثار أو اللغة، وفي هذا الصّدد نجد من نظر إلى هذا التّراث من زاويتين: زاوية المصادر الشفاهية (باختلاف طبيعتها)، وزاوية المصادر المجهولة المؤلّف، والمنتشرة في المجتمعات على شاكلة الألغاز، الأمثال والحكم، السّير...وقلنا إنّها مجهولة لأنّ أصحابها غير محدّدي الهوية، فلا يوجد إلى من تنتسب، وبالتّالي فهي خاضعة لآنية الخطاب التي أنتجت فيها، وهنا يمكن الإحالة إلى الخلفية غير الإبهامية، لأنّ الحديث جار على الأقوال والأحاديث التي لا تملك ضمائر التّلفظ وليست بحكائية(10)، وهو ما يمكن أن يوصف بمجهول الهوية أو عديم الانتساب إلاّ للحظة التّلفّظ به،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

طبعا هي تدخل في مضمار الذّاكرة الشّعبية، ولكنّها خاضعة للاستعمال.

- أساس التّراث الشّفوي:

إنّ العودة في تسلسل كرونولوجي إلى التّاريخ يجعلنا نتوقّف عند الفكر الإغريقي أو اليوناني الذي تعرفنا على ثقافته عن طريق هوميروس(11) الذي كان أوّل مؤرّخ شفوي وصلتنا أعماله مدوّنة، ويعدّ من الأوائل الذين جمعوا بين التّراث الشّفوي والمدوّن. ونتيجة لهذا العمل الذي قام به هوميروس وآخرون شهدت الأمم ارتقاء التراث الشّفوي، ثمّ لا يخفى على أحد أن تكون هذه الرّوايات الشّفوية هي أساس تاريخها(12)، وهو من القضايا التي أثارها المقرحي ميلاد في مقاله حول الرواية الشفوية(13).

إنّ الأمّة العربية الإسلامية من بين الأمم التي شهدت مثل هذا التّاريخ، إذ اعتمدت على التّراث الشفوي بشكل متميّز، وأغلب هذا التّراث المدوّن استند تدوينه إلى الرواية الشّفوية والتّداول على الألسن، ومن المؤرخين المسلمين نجد: ابن خلدون (ت808 هـ)، والمسعودي (ت 346 هـ)، والطبري (ت310 هـ)، يقول جواد علي: "ويكاد الشّعر الجاهلي برمّته أن يكون شعرا شفهيا نشأ في وسط غنائي"(14). فقد وضعوا قوانين علمية مستوحاة من تلك الرّوايات الشّفوية، ورغم هذا الجهد، الذي تشكّلت من خلاله عدّة علوم وُجد من الباحثين من أنكر هذا الصنيع، وعلى الأرجح أن يكون ذلك من الأسباب، التي أدّت بالباحثين إلى هجران التّراث الشّفوي وتركه لعلماء الأنثربولوجيا والفلكلور، الذين لا يبالون بالماضي، وأدّت في الوقت نفسه إلى عدم الاقتناع بمثل هذا الإرث، إلا أنّ الأمر سوف يأخذ مجرى آخر مع القرن العشرين وذلك بظهور حركة علمية قويّة بزعامة يان فانسيناYan Fancina (15) وآخرين من مؤرخين وفلكلوريين تنادي باعتماد التّراث الشّفوي كأساس لوضع التّاريخ وكتابته.

ومن خلال ما ذكرناه، تبدو أوّلية المنطوق على المكتوب، فالوثائق المدونة كانت في الأصل روايات شفوية، والأولوية تظهر في طرائق التّأكد من المادة اللغوية المدوّنة ليس إلاّ، إذ تعدّ المشافهة أو ما يدعى بالتّاريخ الحيّ Histoire vivante من الأنماط الموضّحة للأبعاد النّفسية والاجتماعية والإنسانية، وهو ما آثرنا دراسته من خلال هذه الورقة البحثية في حديثنا عن البعد التّداولي، بما يتضمّنه من آليات تضطلع بالذّات الإنسانية إلى أعماقها وتدرس ما هو ظاهري وخفي، وما تتضمّنه الأقوال من مقاصد Intentionsوحجاج واستلزامات خطابية، ... وهي من الأمور، التي لا نصل إليها في النّص المكتوب إلاّ تأويلا وقراءة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

يعدّ النصّ المكتوب جسرا يربط الفرد بماضيه، إلاّ أنّ هذا الماضي لا يصنعه بمفرده، إنّما يكون في علاقة تفاعلية مع المجتمع الذي ينتمي إليه، وبناء على هذا المبدأ تتمّ الاستنتاجات حول تشكيل الحدث التّاريخي. إنّ أحداث التّاريخ أو حقائقه تتمثّل في كلّ ما تركه السّلف من إرث: عادات، تقاليد، طقوس دينية، فنون، قصص، أساطير، وثائق، مخطوطات.... ويعدّ الأساس الشّفوي لفهمها رغم بعض التّشكيك في حقيقته وصدقه، إضافة إلى استحالة تبيان نسبة الحقيقة في هذا التّراث وإمكانية الاعتماد عليه أثناء كتابة التّاريخ، ووفقا لهذه المعطيات وُجد من الباحثين من نادوا إلى إخضاع التّراث الشّفوي للتحقيق والفحص بوساطة المنهج التّاريخي الصارم.

تداولية التّراث: تحويل التّاريخ الشّفوي إلى تاريخ مدوّن:

إنّ نقل التّراث الشّفوي إلى حالة كتابية يتطلّب التّحكّم في بعض الآليات التي تُعدّ أساسية لإنجاح عملية التّدوين، ومنها أن يقوم المؤرّخ بفحص الرّوايات وتقييمها، والكشف عن دوافعها وطريقة انتقالها، ويمتدّ هذا الفحص إلى التّعرّض إلى أسلوب الرّاوي، والهدف من وراء روايته بمعرفة الخلفيات التي ينطلق منها، وإعادة قراءة النصّ المنقول وتفحّصه في بنائه الدّاخلي والخارجي، وفي هذه الحال يمكن القول أنّ المؤرّخ قد ألمّ بملابسات العملية الخطابية من خلال استعمال الرّاوي للغته.

والمواصفات المذكورة سلفا تعدّ شروطا للتأكد من عدم التّناقض بين التّراث الشفوي والمدوّن، وذلك بعدما أجمع على كون هذا التّراث يفتقر إلى ما يدعى بالقياس الزّمني، وغموض الفكرة ومثالية الماضي Idéalisation du passé ورغم المحاولات، التي قام بها فانسينا Fancinaفي ما يخص ما يدعى بتنميط المعرفة إلاّ أنّه لم يقدّم تنميطا عاما يمكن الأخذ به، إذ افتقدت محاولاته إلى الترتيب والتنسيق حسب فهرس ستيث تومسون Smith Thompson المعروف عند دارسي الفلكلور، ويعدّ الفهرس الوحيد في مجال التّراث الشّفوي.

تخضع عملية البحث في التّراث الشفوي لمراحل ثلاث: أوّلها مرحلة جمع المادة بالمشافهة، ثمّ تأتي مرحلة التصنيف والفهرسة والأرشفة، وتلحقها مرحلة الدّراسة والتّحليل. وإن كان العرب في زمانهم قد رحلوا إلى البوادي وإلى أعماق وتخوم الجزيرة العربية للحصول على اللغة العربية الفصيحة، وقاموا بجمع اللغة عن طريق الملاحظة والمشافهة والسماع، فهو نفس الصنيع، الذي ينبغي على المؤرخ أن يقوم به، مع أنّ يستحسن الاستعانة بطريقة الملاحظة والمقابلة والمشاركة في الآن ذاته (16)، وفي هذه المرحلة يدعو بعض الباحثين إلى استبدال

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

الرّواية التّاريخية بالتّاريخ الشّفوي الذي ليس إلاّ فرع متطوّر عن علم التّاريخ، باكتسابه للعلمية، في حين تعدّ الرّواية الشّفوية مصدرا من مصادر التّاريخ ويتضمن كلّ ما هو تقاليد وأعراف وموروثات أخرى اجتماعية ولغوية وثقافية.

وقبل البحث في البعد التّداولي عسانا نعود إلى سوسور رائد علم اللغة الحدث، وهو أوّل من أشار إلى أسبقية المنطوق على المكتوب، إلى جانب إشارته إلى تفكير الباحثين في الكتابة بوصفها الشّكل الأساسي للغة رغم ما يعتروها من فوائد وعيوب ومخاطر (سوسور 1959، ص32-24)، وعلى أثر سوسور قام البنيويون بتحليل التّقليد الشفوي تحليل مفصّلا دون مقابلته بالمكتوب، ولكن ينبغي التّوضيح أنّ هذه الدّراسات لا تمتّ بصلة إلى الدّراسات، التي تقام حول شفاهية أشخاص لم تكن الكتابة لديهم مألوفة مطلقا.

إنّ الفرق أو التّقابل بين المنطوق والمكتوب، الذي اجتهد كلّ من علم اللغة التّطبيقي وعلم اللغة الاجتماعي في تحديده، لم يحدث كذلك في مجال اللسانيات وصفيا كان أم ثقافيا، بل كانت بدايته الأولى مع بحث ملمان باري Milman Parry (1902-1935) حول الإلياذة والأوديسة، ونظرا لأهمية هذا العمل ألفنا كلاّ من اللسانيات التّطبيقية واللسانيات الاجتماعية تشيران إلى التّقابلات بين الشفاهية والكتابية.

تتواصل البشرية بطرائق شتّى، إلا أنّ اللغة تبقى الوسيلة الأفضل والأمثل، وحيثما وُجد الإنسان وُجدت اللغة، وتتميّز بكونها لغة محكية مسموعة في عالم الصوت، ثمّ لغات الإشارة المتطوّرة تعوّض الكلام وتعتمد على الشفاهية في نظمه، وهنا نشيرإلى أنّ اللغات لم تحظ جميعها بالكتابة وهناك تلك التي لم تعرف الكتابة مطلقا(17). وعودة الباحثين مرّة أخرى إلى الاهتمام باللغة الشّفوية هو عودة إلى اعتبار اللغة ظاهرة شفوية يمارسها المتكلّمون لقضاء حاجاتهم، وصدق ابن جني حين قال: "اللغة مجموعة من الأصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"، وذلك يعني أنّه حيثما توجد كائنات بشرية تكون لها لغاتها، وهي لغات محكية ومسموعة بالأساس في عالم الصوت.

وهنا يبدو الاختلاف الحقيقي بين اللغة الشفاهية، التي تخضع للإطار الطبيعي الذي تولد فيه وترتقي، إذ تنطلق من اللاوعي بالقواعد، واللغات الاصطناعية التي تنطلق من الوعي بالقواعد بصفة مسبقة وتخضع لما هو آلي وصناعي ناهيك عن صورة الإبداعية التي نادى بها تشومسكي إذ تسمح للإنسان بخلق ما لا نهاية من الجمل انطلاقا من عدد محصور من العناصر، جاعلة الإنسان يقتصد كثيرا في لغته الشّفوية، وتداوله إياها أو استعماله لها يسمح بالنّظر إلى الذّات الإنسانية وعواطفها وحالاتها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

المختلفة والمتغيّرة، التي لا نجد لها مثيلا في اللغات الأخرى.

إنّ المنهج الشّفوي من الأدوات المهمّة في تسجيل التّاريخ، ومن الشّهادات الحيّة التي تدور حول قضايا مختلفة: سياسية، اجتماعية، ثقافية...وهو المنهج الذي ينتج التّفاعل بين النّص المكتوب والرّواية الشّفوية، وبدأ الاهتمام بهذا المنهج عند العرب والمسلمين منذ القرون الهجرية الأولى معتمدين على منهج الإسناد قصد تدوين الحديث الشريف والسّيرة النّبوية وكلّ ما يرتبط بالصّحابة والفتوحات الإسلامية.

عندما نقتحم دراسة التّراث المنقول في اللغة الشّفوية نجد أنفسنا بحضور حقيقة مزدوجة نظرية وتطبيقية: كثرة التأويلات النّظرية، وكثرة الترتيبات والتّصنيفات الموروثة من لسانيات اللغة المكتوبة، وصعوبة الحصول على المعطيات الطبيعية لأنّه إذا كان الموضوع حاضرا في المحادثات اليومية، وسهل الاستعلام عنه أثناء السّماع، فهو صعب المنال إذا كان الهدف هو التّسجيل من أجل التّحليل، ويبدو مهمّا لدراسة التّراث وهو في وضعية شفوية تلقائية، أو تلقائية علاماتية أن نأخذ ببعض الحذر النّظري وتحديد الإطار، الذي يسمح بالكشف عن خصوصيات التّراث المنقول في حال المنطوق/الشّفوي وذلك بهدف الوصف اللغوي.

نقصد بالوصف اللغوي هنا الانطلاق من فكرة التّفرقة السوسورية بين اللغة والكلام، فهو الذي يقول: "إنّ اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد، فإنّما هي منه بمثابة قسم معيّن وإن كان أساسيا، والحقّ يقال، فهي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليُمكّن الأفراد من ممارسة هذه الملكة، وإذا أخذنا الكلام جملةً، لبدا لنا متعدّد الأشكال متباين المقومات موزّعا في الآن نفسه إلى ما هو فردي، وإلى ما هو اجتماعي...أمّا اللغة فهي على عكس ذلك كلٌّ بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب"(18)، فعندما يجمع الباحث مدونته الشّفاهية، فهو يبحث في دراسة اللغة انطلاقا من المظاهر الكلامية. ومهما كان النّقد الموجّه إلى سوسور في ما يخصّ هذا التّصوّر، إلاّ أنّه بيّن بجلاء أن اقتحام اللغة باعتبارها مجموعة من القواعد والقوانين المستودعة في الذّهن لا يكون إلاّ من خلال الممارسات الكلامية، وأنّ الوحدات اللسانية حاملة للدلالة انطلاقا من علاقة التّقابل التي تشكّل نظاما، فبالنسبة لكلّ باحث يقترح دراسة اللغة يكون الوصف اللغوي على أساس نماذج في حالة استعمال حقيقية أي في الكلام.

يمكن للتفرقة السوسورية بين اللغة والكلام أن تواصل في توضيح بعض الأمور إذا لاحظنا أنّ العملية المنجزة عندما تكون اللغة في حال

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

استعمال من قبل الذّات المتحدّثة في مقام تلفّظي معيّن، هي دائما استقطاب اللغة من قبل الذّات(19)، ومنه يمكن الحديث عن لسانيات التّلفظ وتفسير التّصوّر، الذي يقول إنّ للساني ذاتا عندما يتحدّث عن المتلفّظ. إنّ الطبيعة الحركية للغة من تصوّر يولد وآخر يزول والمرتبطة ببناء اجتماعي وثقافي وما يحمله من عادات وتقاليد راسخة في ذهن الإنسان، فلم يحدث أي سوء تفاهم بين الأجيال، وإن كنّا نقصد هنا التّفاهم في المضامين والمحتويات أمّا التركيب فيمكن أن يحدث لها التغيير باعتبارها من نتاج الفرد، وهو ما قصدناه بالذّات المتحدّثة سلفا.

إنّ التّفاهم بين الأجيال وانتقال التّراث بينها ناتج عن تميّز اللغة الشّفوية بما يدعى بالذّكاء الاجتماعي، والفضل يعود إلى الأمثال الشّعبية، لأنّ المثل إضافة إلى كونه قولا منتقلا لا يعترف بمنتجه ولا بالحيّز الزماني والمكاني، وإضافة إلى معناه التّقليدي، الذي يشبه به حال الحدث الثاني، يمرّ عبر تجربة إنسانية تتفاوت درجاتها وتختلف من حيث أهميتها ومكانتها في حياة الأشخاص، وهذا ما كنّا نقصده بالبعد التّداولي، الذي ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في أثناء التأريخ للتراث الشفوي، فأهميته تظهر في نقل الذّاكرة الفردية والجماعية بحذافرها أي بربطها بملابساتها الحدَثية والشخصية والاجتماعية والثّقافية، وإلاّ لن يظهر الاختلاف بين المؤرخ للتراث في وجهه الإنساني وبين الأرشفة، التي تتمّ آليا مجرّدة المادة اللغوية من محيطها المفعم بكلّ الأحاسيس والعواطف...لأنّ الذّاكرة أيضا هي روح عصر مضى نستحضره ونوظّفه في المقامات نفسها محاولين أن نقترب منه الأدوات والإجراءات نفسها لعلنا نصل إلى الإلمام بما يحيط به من معالم وحدود ورؤى.

إنّ الشّفوية اكتست أهمية كبرى في التّاريخ لأنّها المصدر الأساس له، فقد صدقت الدّراسات التي قدّمت المنطوق عن المكتوب، وامتياز اللغة الشّفوية عن الخطّية بالذّكاء الاجتماعي مثلما أسلفنا الذّكر يتبلور في كونها مدوّنة تحتمل أحوالا وأحداثا صاغتها بطريقتها الخاصة، وحدثت في ظروف معيّنة متميّزة وقامت بصياغتها في بنىً صغيرة تحمل في أعماقها نصوصا طويلة تعبّر عن تجربة مهما كانت طبيعتها، وهو ما لا يمكن أن يتميّز به التّاريخ المدوّن، يقول عبد الجليل مرتاض: "إنّ اللغة الشّفوية يغلب عليها الطابع التوصيلي أكثر من أي بعد دلالي آخر، وهي مهما كانت غريبة عمّا يطرأ أو يستحدث عليها من خطابات رسمية، وعلمية وتاريخية...فإنّها لن تكون أكثر غرابة ولا عجبا من نفسها، وذلك لكونها لا تدرك ولا تنضبط إلاّ بتقليد ثقافي شامل، بما في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

ذلك الممارسات والسلوكات والإيحاءات والمعاني المصاحبة لها"(20).

ومع هذه الخصوصيات التي تميّز التّراث الشّفوي في شفويته، إلا انّ ما يعتريه من الخارج سوف ينعكس على الجانب الخطّي أم المدوّن، لأنّ اللغة الشّفوية تحتمل الظروف الطّارئة وتقاومها أكثر ممّا يحتمله النص المكتوب، إن ترتبط اللغة الشّفوية بالظروف مباشرة في حين يتّخذ النص المكتوب مسافة بينه وبينها، ومن أجل هذا ينبغي التّفكير في سبل المطابقة بين التّراث الشّفوي والتّاريخ، والتّفكير في كيفية نقل المنطوق إلى مكتوب حتّى نستجمع شتاته، ونلّم بأعضائه وعضويته، ونستنطقه بلغة تلج إلى مكنوناته وأعماقه دون أن تُخلّ بماضيه وعفويته.

وفي الأهمية التي يمكن أن تقدّمها الشّفوية للتّاريخ، يبدو من الفائدة العلمية عدم الاعتقاد أنّ التّاريخ في صيغته المكتوبة يعمل على تطوير اللغة وشفويتها، إذ نتناسى أنّ ظاهرة الإبداع لا تتم إلا في حضن الشّفوية، في تداولاتها وانتقالها من شخص لآخر ومن السياقات والمقامات التي تنتج فيها، فالإبداع مرتبط بالتّداولية من حيث استعمال اللغة في سياق معيّن تعبيرا عن أمر ما، وتوظيفا للإجراءات التواصلية التي تنشأ في أثناء إنتاج الخطاب ذاته. وفي هذا المقام نتساءل: هل يمكن فصل التّاريخ عن الممارسة اللغوية، وهل يمكن كتابة التاريخ دون الاستعانة باللغة الشفوية؟...ومهما تعدّدت الأسئلة فستؤدي حتما إلى الانطلاق من فكرة أسبقية المنطوق عن المكتوب التي نادى بها أغلب الباحثين في اللغة والأنتربولوجية والتّاريخ، والمنطق...ناهيك عن كون التّاريخ لا يصبح تاريخا إلاّ بمرور زمن عن المادة المنطوقة التي هي مادته الأولية.

الهوامش:

(1) C.W.Morris, Foundation of the theory of signs, Chicago University Press, Chicago 1938.

(2) اكتسبت التّداولية عددا من التعريفات حسب اهتمام الباحث نفسه، فقد كان حسب المعنى أو حسب الذات المنتجة، فالمهتم بالمعنى يحدّدها من خلال المعنى التّواصلي أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى المقول، أو دراسة استعمال اللغة في الخطاب حيث يتمّ إدراك المعايير والمبادئ التي تعين المرسل في إنتاج الخطاب وتوجيهه بما في ذلك توظيف جميع الجوانب اللغوية في إطار ملابسات العملية الخطابية. أنظر: الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت 2004، ص 22. أو نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، الإسكندرية، 2002، ص52.

(3) مسعود، صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التّراث اللساني العربي، ط1، دار التنوير، الجزائر 2008، ص 29.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

(4) صالح، بلعيد، الأمازيغية في خطر، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو 2011، ص 129.

(5) مصطلح اللغة الأمازيغية افتراضي لغياب اللغة الجامعة، ولكن تبقى اللهجات البربرية لغات السّكان الأصليين لشمال إفريقيا، توارثها الخلف عن السلف، وهي لغات ليبية قديمة، لها امتداد جغرافي واسع، وتتواجد في قارة إفريقيا وآسيا وأروبا، وهي لغات تحمل خصوصيات كتابية تعود إلى ثلاثة آلاف سنة، وما تزال النقوش في بعض المناطق الصحراوية شاهدة على ذلك، وتعدّ آثارا كتابية وتحمل اسم نقوش التيفناغ التي تحوّلت إلى كتابة التيفناغ التي تأثرت بالحرف الفينيقي، وللمزيد انظر: صالح بلعيد، المازيغية في خطر، ص 135 .

(6) ك. أوركيوني، فعل القول من الذّاتية في اللغة، ترجمة محمد نظيف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص 51 وما بعدها.

(7) وهو ما نشهده مع اللغة الأمازيغية في المغرب العربي وهي متفرّعة إلى عدّة لهجات محلية. وقد أكّد علماء الأنثروبولوجيا أنّ الشّعوب التي لا تعرف الكتابة أو التي فقدت ما كتبته لعوامل مختلفة تتمكّن من حفظ تاريخها شفويا بكثير من الشّعوب التي تعرف الكتابة.

(8) عبد الهادي بوطالب، أزمة الهوية في أنظمة التعليم في العالم الإسلامي، مطبوعات الأكاديمية الملكية المغربية، ع8، الرباط 1991، ص 107-108.

(9) A.J.Greimas, J. Courtes, Sémiotique : Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Editions Hachette, Paris 1979, P 335-339.

(10) ذهبية. حمو الحاج، لسانيات التّلفظ وتداولية الخطاب، ط2، دار الأمل للنشر، تيزي وزو 2012، ص 122.

(11)كان هوميروس يجول ويصول بين آسيا الصغرى والشرق الأدنى جامعا القصص والحكايات، وهذا إلى جانب مؤرخين آخرين. وجمعت المادة اللغوية دون انتسابها إلى أصحابها في غالب الأحيان.

(12) حمل كتاب بومسداي Boumesday روايات شفوية كثيرة، ومنها الأغنية القصصية La Balade ونشيد رونالد Ronald، وقد كان هذا الكتاب أوّل مصدر في التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي لإنجلترا وذلك في الحقبة النورموندية.

(13) المقرحي ميلاد، الرواية الشفوية والمصادر المدوّنة، مجلة قاريونس العلمية، السنة الثانية، ع 4، بنغازي 1989، ص 119.

(14) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ج8، بيروت 1978، ص91.

(15) فانسينا. يان، المأثورات الشفهية، دراسة في المنهجية التاريخية؛ ترجمة أحمد علي موسى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1981م، ص236 .

(16) وهو ما فعله العالمان الأمريكيان ملمان باري Milman Parry وألبرت لورد Albert Lord وتعدّ نظريتهما من النّظريات النّاجحة في مجال البحث في التّراث الشّفوي.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471

(17) في الوقت الحاضر نشهد لـ78 لغة لها أدب مكتوب، وهذا في مقابل 3000 لغة متكلّم بها، وإن لم توجد طريقة لإحصاء اللغات التي تلاشت وتحوّلت إلى لغات أخرى قبل أن تعرف الكتابة، إلى جانب أنّ هناك لغات مستخدمة اليوم لم تكتب أبدا، أو كتبت وفقدت كتابتها ولم يبق منها إلاّ القليل. انظر: والترج. أونج، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عزّ الدّين، مراجعة محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت 1994، ص 43.

(18) F. Dessaussure, Cours de linguistique générale, Dalila Morsly, ENAG Editions, Alger 1990, P 23.

(19) E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, Edition Gallimard, Paris 1974, P 81-82.

(20) عبد الجليل مرتاض، اللغة والتّواصل، اقترابات لسانية لإشكاليات التواصل للتواصلين الشفوي والكتابي، دار هومه، الجزائر، 2012، ص 142.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/471